الفصل الثالث

الفكر السياسي في العصور الحديثة

مقدمة

تبدأ هذه الفترة منذ القرن السادس عشر الميلادي والذي مثل بداية التحولات في القارة الأوروبية في كافة المجالات، وتمثل هذه الفترة بداية عصر النهضة في أوروبا حيث بدأ نفوذ الكنيسة بالتضاؤل نتيجة الصراعات الدينية التي ظهرت، وانقسام الكنيسة على نفسها وبداية ظهور القوميات والحركات التحررية في أوروبا والتي مهدت الطريق لكافة الافكار والمذاهب السياسية للظهور في هذه المنطقة فيما بعد.

وفيما يلي نوجز أهم هذه التحولات التي اصابت المجتمع الأوروبي والتي بدورها مثلت نقطة الانطلاق للفكر السياسي، كما ساهمت في تحديد معالمه الاساسية في هذه الفترة والفترات التالية:

١ - القضاء على فكرة ازدواج السلطة التي كانت سائدة في العصور الوسطى، والاعتراف بسلطة الدولة السياسية على جميع المقيمين فيها بما فيهم الكنيسة مما كان له الاثر الكبير في اضعاف سلطة الكنيسة والحد من تدخل رجال الدين في الحياة العامة.

٢ - ظهور الدول القومية واضمحلال النظام السياسي الاقطاعي اذ سيطرت على أوروبا في تلك الفترة القومية وبدأت الشعوب تطالب بحريتها وحقها في تكوين الدول القومية المستقلة الخاصة بها، متحررة من السيطرة الخارجية للكنيسة وأمراء الاقطاع المرتبطين بها.

٣ - ظهور الحركات التحررية وبلورة مبدأ السيادة :
بعد اضمحلال سلطة الكنيسة وزوال النظام الامبراطوري ظهرت الحركات التحررية في معظم دول أوروبا، واخذت هذه الدول تطالب بالسيادة التامة من الناحية الروحية والزمنية على سكانها وآرضيها. وظهرت فكرة القانون الطبيعي كفكرة سياسية

تقوم على الاعتراف بحقوق الانسان الطبيعية التي لا يجوز للقوانين الوضعية تجاوزها.

٤ - التقدم التكنولوجي وزيادة الاهتمام بالبحث العلمي:

ظهرت في أوروبا في هذه الفترة الدعوات للاهتمام بقُدرة الانسان على العمل والتفكير والتغيير رافضة بذلك المقولات الدينية التي اهملت دوره وجعلته خاضعاً للقوى الالهية الجامدة. وقد رافق ذلك زيادة الاهتمام بالبحوث العلمية القائمة على التفكير التجريبي والتي ترفض التفكير الميتافيزيقي والفلسفي، مما كان له الاثر الكبير في ظهور عصر الثورة الصناعية والتكنولوجية في معظم انحاء أوروبا وتهيئة المناخ العلمي للابحاث والدراسات العلمية.

obeikandl.com

المبحث الاول

نيقولا ميكافيللي (١٤٦٩ - ١٥٢٧ م)

حياتـه :

ولد ميكافيللي سنة ١٤٦٩ م في مدينة فلورنسا الايطالية. التي كانت تخضع حينئذ لحكم اسرة مديتشى. و يرجع اصل ميكافيللي الى اسرة عريقة وبارزة وقد اتاح له وضعه الاجتماعي فرصة للتعليم العالي في مجالات مختلفة مثل الادب والقانون والتاريخ والفلسفة.

بدأ ميكافيللي حياته العامة موظفاً عادياً في حكومة مدينة فلورنسا الملكية. ولكن حين اجتاحت الجيوش الفرنسية هذه المدينة واطاحت بحكومة لورينزو ميذتشي المطلقة لم يتردد ميكافيللي في تأييد النظام الجمهوري الجديد، وتمكن ميكافيللي خلال هذه الفترة من التنقل في وظائف حكومية عليا كان آخرها السكرتير الاول لحكومة فلورنسا، واوفد في عدة بعثات مهمة نيابة عن الحكومة الى المدن الايطالية والدول الاجنبيه، واستطاع ميكافيللي خلال هذه الفترة الاطلاع على خبايا الحياة السياسية واسراراها عن قرب، وفي سنة ١٥١٢م حين عادت حكومة الميدتشى للحكم بمساعدة البابا قبض علي ميكافيللي وعذب وطرد ليعيش في عزلة في مزرعته قرب فلورنسا وفي هذه الاثناء ألف ميكافيللي:-

١ - كتاب الامير The Prince* سنة ١٥١٣م، والذي حاول من خلاله التقرب الى العائلة الحاكمة في فلورنسا وأهداه الى الامير لورينزو دي مديتشي واضعاً فيه خلاصة أفكاره وتجاربه، وشارحاً فيه مجموعة من النصائح للحاكم راجياً ان ينال رضى الحاكم الجديد، لكنه فشل في ذلك.

٢ - وفي سنة ١٥٢١ ألف كتابه الثاني «مقالات في الكتب العشرة الأولى

ليتيوس ليفيوس» والذي سمى فيما بعد بالمطارحات The Discoures* حيث حاول ميكافيللي من خلاله ان يكون اكثر علمية من كتاب الأمير، ولجأ فيه الى تحليل الاوضاع السياسية مستعيناً بطريقة جديدة في البحث العلمي. وبعد ذلك ألف ميكافيللي عدة كتب أخرى.

منهجه :

من المتفق عليه لدى معظم الدارسين لكتابات ميكافيللي بانه كان يحاول ان يخط لنفسه طريقة جديدة في البحث والتفكير تختلف عن سابقيه، وحتى ميكافيللي نفسه يدعى بأنه ابتكر طريقة جديدة في البحث مغايرة للطرق التي سبقه اليها غيره من الباحثين القدامى ودعاة الاخلاق ، و يلاحظ على اسلوب ميكافيللي عدم اهتمامه بالمنطق والفلسفة وتشغفه للربط بين الاسباب والنتائج والدراسات التحليلية المستمدة من التاريخ.

ويمكن ايجاز اسلوب ميكافيللي في البحث في مجموعة من النقاط[1] .

١ ـ انه استعان بالتاريخ لاستقصاء الاحداث ومعرفة نتائجها وارتباطاتها وامكانية تكرارها.

٢ ـ محاولة وضع تعميمات في حالة تكرار الحوادث للوصول الى قواعد عامة توضع أمام الحكام لتساعدهم على تبني مواقفهم.

٣ ـ البحث عن امكانية التدخل في الاحداث مستقبلاً بعد معرفة اسبابها ومحاولة تحديد السلوك الواجب اتباعه لمواجهة الاحداث.

مفهوم الفضيلة عند ميكافيللي:

أن الفضائل ومكارم الاخلاق في نظر ميكافيللي تخص افراد المجتمع

---

*ـ تجدر الاشارة هنا الى ان كتاب الامير وكتاب المطارحات لهما نسخ عربية مترجمة بقلم خيري حماد الاول صادر عن المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٧٠م، والثاني صادر عن دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٧٩م. أما النسخة الانجليزية التي اعتمد عليها في هذا البحث فهي:

★ Machiavelli, The Prince & The Discourses, The Modern Library, New York, 1950.

١ـ مقدمة ولكر للنسخة المترجمة من المطارحات ص ١١٦-١٢٤.

فقط، ولا بأس من الآخذ بها اذا كانت تؤدي خدمات للمجتمع، ولكن الحاكم غير مقيد بهذه القواعد الاخلاقية، وتقاس أخلاقياته بمقدار ما يحققه من توطيد لسلطته ومدى تحقيقه لوحدة وقوة الدولة التي يرأسها.[2]

و يعرف ميكافيللي الفضيلة بانها كل ما يوصل الانسان لتحقيق أغراضه التي هي في الغالب تحقيق القوة والسلطة والنجاح.، وان الرجل الفاضل في رأيه هو الذي يستطيع تحقيق اهدافه. ومن هنا كان ميكافيللي قد عالج موضوع السلطة والدولة بعيداً عن القيم الدينية والاخلاقية المتعارف عليها كما انه أبدى كراهية للبابا والقيم الدينية السائدة*، وطالب الأمير التخلص من فضائل الامير واخلاقه كانسان وذلك من أجل مصلحة الدولة وقوتها. أي ان ميكافيللي كان من أوائل المفكرين الذين نادوا بفصل السياسة عن الاخلاق والدين.

الغاية تبرر الوسيلة :

سيطرت فكرة الغاية أو الهدف على جميع نظريات ميكافيللي السياسية، وكان يرى بان الشهرة والنجاح هي الغاية التي على الامير السعي لتحقيقها، وهو لا يهتم بمدى اخلاقية الوسيلة التي يتبعها الحاكم لتحقيق أهدافه، وانما كان يتسائل عن مدى ملائمة هذه الوسيلة لتحقيق اهدافه المعنية. فميكافيللي يقول في كتابه الامير بان الحاكم اذا ما حاول توطيد سلطته أو توسيع امارته بغزو دولة اخرى فان له الحق في انتهاج أي وسيلة للوصول الى هذه الغايات مهما كانت الوسيلة قاسية، وان أي وسيلة أو سبيل يتبعه يعتبر مشروعاً مهما كان طغيانه[3].

نظرته للمجتمع والدولة :

آمن ميكافيللي بان الناس اشرار بطبيعتهم وانهم لا يفعلون الخير الا

2- The Prince, Op. Cit, p. 65.

* تعكس آراء ميكافللي هذه نقمته على البابا والكنيسة التي حملها مسؤولية تخلف ايطاليا وتمزقها، كما تعكس رغبة ميكافللي في التخلص من القيم السائدة للوصول الى الهدف الاسمى بالنسبة له وهو وحدة ايطاليا وتحررها انظر:
The Discourses, p. 151-152.

3- The Prince, p. 66.

للضرورة و يقر بان الخطيئة أصيلة في الانسان، وسهولة افساد الناس، وانطلاقاً من اعتقاد ميكافيللي هذا بسوء طبيعة البشر حاول تفسير سلوك الأفراد وسعيهم لتأمين حياتهم والمحافظة على ممتلكاتهم، كما انه ارجع الى هذه الطبيعة السيئة في البشر تصرفات الحكام وسعيهم لتقوية وتوسيع سلطانهم.

انطلاقاً من نظرة ميكافيللي المتشائمة للطبيعة البشرية اعتبر العامل الأمني هو العامل الاساسي لتكوين الدول، فهو يرى بان الدافع الاساسي لنشوء الدول والمجتمعات البشرية هو رغبة الجماعات في التخلص من الاخطار وتجنب اهوال الحروب[4] بحيث يجتمع الافراد في اماكن يختارونها لضمان بقائهم و يقبلون الرضوخ لحاكم قوي وشجاع يضمن استتباب النظام و يكون قادراً على قطع دابر الفوضى والتصدي للفساد.

وقد نظر ميكافيللي للدولة كغاية في ذاتها، وقال بان الدولة كنظام له قيمه الخاصة التي قد تختلف عن القيم السائدة في المجتمع، وان الدولة في تعارض محتوم مع مصلحة الافراد الخاصة لان الافراد انانيون بطبعهم و يسعون للسيطرة و يرفضون الخضوع للدولة، وقان بأنه في حالة تعارض القيم التي تحكم الدولة مع القيم السائدة في المجتمع مثل الاخلاق والدين يكون لزاماً على رجل الدولة العمل على التمسك بالقواعد التي تحافظ على سلطته ودولته متغاضياً في ذلك عن القيم الاخرى، لان وجود الدولة وقوتها ضروريتان لانقاذ المجتمع من الفوضى.[5]

و يرجع الفضل لميكافيللي اكثر من غيره في استخدامه مفهوم الدولة بالمعنى الحالي ككيان سياسي وقوة منظمة لها سيادتها على جميع الافراد والمؤسسات والاراضي التابعة لها. وهذا بالرغم من ان الدولة التي عايشها ميكافيللي واثارت حماسته في تلك الظروف لم تكن تتعدى «دولة المدينة»* لكنها لا تعكس

4- The Discourses, P. 112.

5- The Discourses., p. 528. وفي كتابة الامير نجد ميكافللي يقول بان على الامير ان لا يكترث بوصفه بتهمة القسوة اذا كان في ذلك ما يؤدي الى وحدة رعاياه وولائهم. The prince ch.17,p.60

* للمقارنة أنظر دولة المدينة في الحضارة اليونانية في الفصل الاول من هذا الكتاب.

بالضرورة أمل ميكافيللي وتطلعاته لتحقيق الدولة القومية الموحدة في ايطاليا حيث كان ميكافيللي يحمل عاطفة قوية لبلده ايطاليا و ينظر الى اليوم الذي يجدها فيه دولة قوية موحدة، ولذلك فهو يطالب بحق الشعوب في تحقيق الاستقلال والقوة لكي يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم، وكان يدعو المواطنين للولاء لبلدهم وقال: بان واجب الفرد نحو بلده يفوق الواجبات والالتزامات الاخرى، ودعى الى أهمية وجود الجيش الوطني وهاجم الجنود المرتزقة وحملهم مسؤولية التفكك والانقسام الذي تعيشه ايطاليا[٦].

نظام الحكم :

رفض ميكافيللي التقسيمات السابقة المتعارف عليها لانظمة الحكم ، وقال بأن اشكال الحكومات وفق تلك التقسيمات غير مستقرة وانها تتغير وتتبدل ومن السهل افسادها والتحول الى معكوساتها، وكان يرى بان هناك نوعان من الحكم صالحان و يتمتعان بالاستقرار هما[٧]:

١ - النظام الملكي .

٢ - النظام الجمهوري .

وهو يرى بان أياً من النظامين - الملكي أو الجمهوري قد يصلح في حالة معينة ولا يكون صالحاً في حالة اخرى نظراً للظروف التي تمر بها الدولة وطبيعة الشعب المحكوم. فالنظام الملكي في نظره ضروري للدولة الجديدة حيث يكون الحاكم في هذه الدولة هو خالق الدولة وصائغ أخلاقها ونظمها الاجتماعية، كما ان النظام الملكي ضروري لاصلاح الدول الفاسدة، والقضاء على الاعداء والمنافسين والثورات، وفي أوقات الازمات[٨].

لكن رغبة ميكافيللي هذه في الحكم المطلق واللجوء للقوة واسهابه في شرح

6- The Prince, Ch. 26, p. 94.
وكذلك The Discourses, p. 349.

7- Ibid, p. 113-117
The prince, ch.1, p. 4-5

8- The Discourses, Book, 1, Ch. 9.
وكذلك الفصل العابر والثلاثين من الكتاب الأول من نفس الكتاب.

تفصيلاتها يجب ألا تحجب عنا رغبة ميكافيللي وتأييده للحكم الشعبي الجمهوري حيث يشارك المواطنين في الحكم، و يطالب باللجوء الى الانتخابات وحرية المناقشة بشرط ان يكون الشعب قد وصل مرحلة من النضج والتبصر والتمتع بالفضيلة[٩].

من الشرح السابق لانظمة الحكم في رأي ميكافيللي نستنتج بان ميكافيللي كان يؤثر النظام الجمهوري و يتحمس له. ولكنه حين اكتشف عدم صلاحية هذا النظام في ايطاليا وعدم ملاءمته للظروف اقترح حلا وسطاً للحيلولة دون قيام نظام ديكتاتوري وذلك بان يعهد الحكم الى امبراطور يتمتع بكافة الصلاحيات لادارة البلاد بشرط ان تكون سلطاته الواسعة هذه لفترة مؤقتة أو محددة بالهدف الذي وجدت من أجله[١٠].

فن الحكم : وفضائل الأمير الناجح

يبين ميكافيللي في كتاباته المتعددة واجبات الحكومة ووظائفها، وما على الحكومة اتخاذه من اجراءات وتكتيكات لتحقيق استراتيجيتها في المحافظة على بقائها وقوتها، و يرى بان احراز القوة للامير والدولة يفوق أي اعتبار آخر ولا يمانع من تجاوز القواعد الاخلاقية المتعارف عليها في سبيل تحقيق هذا الهدف[١١].

ويخصص ميكافيللي الجزء الاكبر من كتاباته سواء في الأمير أو المطارحات لشرح صفات الامير الناجح، كما يقدم لهذا الامير مجموعة من النصائح والارشادات التي عليه السير في هداها للحفاظ على وحدة دولته وقوتها. وضمان الاستقرار لها في المدى الطويل*.

٩- The Discourses, Boos. 1, Ch. 58

١٠- انظر في ذلك 1 The Discourses, Book. 1, Ch. 34.

11. Sibley, Mulford, OP. Cit, PP. 301-303

* يجد القارىء حصرا للفصول الخاصة بكل مجال من هذه المجالات في العرض. الذي قدمه ليل ووكر لنظرية ميكافللي السياسية في مقدمة الترجمة العربية لكتاب المطارحات ص ١٦٠-١٩٦، وتبدو هذه النصائح أكثر وضوحا وصراحة في الفصول الأخيرة من كتاب الأمير.

ومن خلال متابعة كتابات ميكافيللي عن فضائل الأمير الناجح والنصائح التي يقدمها له يمكننا تحديد أهم هذه الفضائل وتقسيمها حسب المجال الخاص

١ ـ من ناحية القيم العامة، فصل السياسة عن الاخلاق والدين :ـ

على الأمير التخلص من الاخلاقيات التقليدية والبدع والقيم المسيحية، وخاصة فيما يتعلق بالذلة والتواضع والرضوخ للحكام، مع اقراره بامكانية استخدام الدين كوسيلة لكسب الشعب فقط.

٢ ـ في مجال علاقاته الداخلية وواجبه نحو تحقيق الأمن الداخلي :ـ

ينصح ميكافيللي الأمير بأن يحاول الجمع بين كونه طيب وشرير في نفس الوقت، وان على الامير العمل على ان يخافه الناس ويحبونه في ذات الوقت.

٣ ـ في مجال الحياة الاقتصادية وتحقيق الرفاهية للمواطنين:ـ

ومن فضائل الأمير أن يسعى لتحقيق العدالة الاجتماعية وتوزيع الملكية بشكل عادل، لأن فقر الأغلبية سيؤدي بها الى الثورة.

٤ ـ في مجال العلاقات الدولية وتحقيق قوة الدولة في مواجهة الآخرين:ـ

يجب على الأمير الناجح ان يتعلم كيف يتخلص من عهوده ووعوده عند الحاجة، وان للأمير الحرية الكاملة في اختيار الوسائل المناسبة لمواجهة الأوضاع المتبدلة في الساحة الدولية، و ينصحه باللجوء للقوة متى كانت ضرورية، وان يكون حاسماً في تعامله مع الاعداء، ورفض الحياد في العلاقات الدولية.

٥ ـ في مجال الحرب وتحقيق الانتصار على الاعداء :ـ

الأمير الناجح هو الذي يعمل على الاحتفاظ بجيش وطني قوي ولا يلجأ للقوات المرتزقة الا حين الضرورة. وان الامير الناجح هو الذي يعد دولته لتكون في حالة استعداد دائم للحرب.

ملاحظات ختامية:

يلاحظ المتتبع لكتابات ميكافيللي واتجاهاته السياسية بان كتابات ميكافيللي وآراءه تمثل طعم المرارة التي عاشها في حياته الخاصة، وما واجهه من فشل في علاقاته مع الحكومات المعاصرة. كذلك فان كتاباته تعد خير معبر عن الفترة الزمنية التي عاشها والحياة السياسية السائدة بما فيها من صراع بين الحكام والاباطرة وما رافقها من مكائد وصراعات مستديمة، ولهذا يعد ميكافيللي وما مثله من تطرف في آرائه مرآة للعهد الذي عاشه بالرغم من الانتقادات الجمة التي وجهت اليه والى فكره، و يرجع اليه الفضل في كثير من الأفكار والآراء التي ما زلنا نعيش في ظلها. نورد منها:

١- انه من أوائل المفكرين السياسيين الذين اهتموا بالدولة ككيان سياسي له خصوصيته، واعتبر الدولة هدف في حد ذاتها، ونادى بأهمية وجود للدولة القومية، وتوفر عنصر السيادة لها مما يتطابق مع المفهوم الحالي للدولة المعاصرة، وكذلك يعود له السبق في فصل السياسة عن القيم الأخلاقية والدينية الأخرى، ولهذا يعد ميكافيللي في الحقيقة مؤسس علم السياسة الحديث.

٢ - ان كتابات ميكافيللي في غالبيتها كتابات واقعية تنم عن نزعة متشائمة وتنظر بنوع من الشك والريبة للطبيعة الانسانية، ولذلك فهو لم يتردد في وصف العلاج الملائم لها.

٣ - ارتبطت افكار ميكافيللي بالسمعة السيئة في مجال الحياة السياسية خاصة حين أباح اللجوء للوسائل غير الأخلاقية لتحقيق أهداف الحكم.

٤ - يلاحظ المتتبع لكتابات ميكافيللي مدى شغفه بالتاريخ وكثرة استخدامه للأمثلة التاريخية للتدليل على صحة أفكاره، وبذلك يعد ميكافيللي أحد مؤسسي طريقة التحليل التاريخي الحديث.